بعد حطين، لم يعد للصليبيين، في المملكة المقدسة خصوصاً، قوة يتباهون بها، لذا، ما إن استسلمت عسقلان وغزة لصلاح الدين في أيلول/ سبتمبر من العام نفسه، حتى قرر صلاح الدين أن ينطلق بجيشه (الذي أعاد جمعه من كل المنطقة في جنوب فلسطين، حيث كان قد نشره منذ سنوات)، ليستكمل توحيد بلاد الشام. وما إن اتجه بهذا الجيش شمالاً، نحو القدس، لفتحها عنوة وبالسيف (وكان قد أقسم على ذلك أمام وفد من المدينة جاءه إلى عسقلان لكي يفاوضه ولكنه عاد بعد أن رفض شروط صلاح الدين)[41]، حتى بدأت مدينة القدس تستعد لمقارعة القائد المسلم الذي جاء يتحدى مناعتها وجبروتها، بعد ثمانية وثمانين عاماً من احتلال الصليبيين لها.

وكان «باليان الثاني ديبلان» أو «باليان بن بيرزان» أو «باليان ابلّين» صاحب الرملة، وأحد القادة الصليبيين الذين لجأوا إلى صور، قد طلب من صلاح الدين السماح له بدخول القدس لكي يصطحب زوجته «الملكة ماريا» وأولاده الذين لجأوا إليها من نابلس، فسمح له صلاح الدين بذلك شرط أن لا يمكث بها سوى ليلة واحدة وأن لا يصطحب سلاحاً، فوافق. ولكن ما أن دخل باليان المدينة المقدسة، وكان فيها البطريرك هرقل، حتى اضطر للبقاء فيها تحت ضغط المسيحيين الفرنجة الذين التمسوا إليه أن يقودهم في الدفاع عن المدينة، غير أنه لم يرض أن ينكث بوعده لصلاح الدين فكتب إليه يستأذنه فأذن له صلاح الدين بذلك، بل إن صلاح الدين أرسل حرساً من عنده لمرافقة زوجته وأولادها، مع حاشيتها ومتاعها، إلى صور[42].

وجدير بالذكر أن المسيحيين الوطنيين التابعين للكنيسة الأرثوذكسية لم يكونوا منسجمين مع أبناء دينهم من أتباع الكنيسة اللاتينية من الصليبيين بسبب التفاوت الواضح بين الكنيستين بالإضافة إلى انتمائهم العربي والمشرقي، إذ كان «لزاماً على المسيحيين الوطنيين أن يشهدوا طقوساً كانت لغتها وشعائرها غريبة عنهم،

---

(41) رنسيمان، المرجع السابق، ج 2: 748.

(42) م. ن. ص 748 ـ 749، وابن الأثير، المصدر السابق، ج 11: 546. وكانت «ماريا» زوجة للملك آموري الأول. وقد تزوجت من «باليان» بعد وفاة زوجها الأول. ويذكر «غروسيه» أن حرس صلاح الدين رافق الملكة من أبواب القدس حتى طرابلس (Grousset, Op. Cit., V. 2, p. 809) إلا أننا نميل إلى الأخذ برأي رنسيمان.